مجلة كليّة
الدعوة الإسلامية
عشر
مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا
1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي

إختتام النّبوّة

ظاهرة الشّعراء الكُتّاب في ليبيا

مالم يُذع من المصطلحات النحويّة

مجمل لتاريخ الكنيسة

من مناهج البحث العلمي

المنهج الوصفي

DESCRIPTIVE METHOD

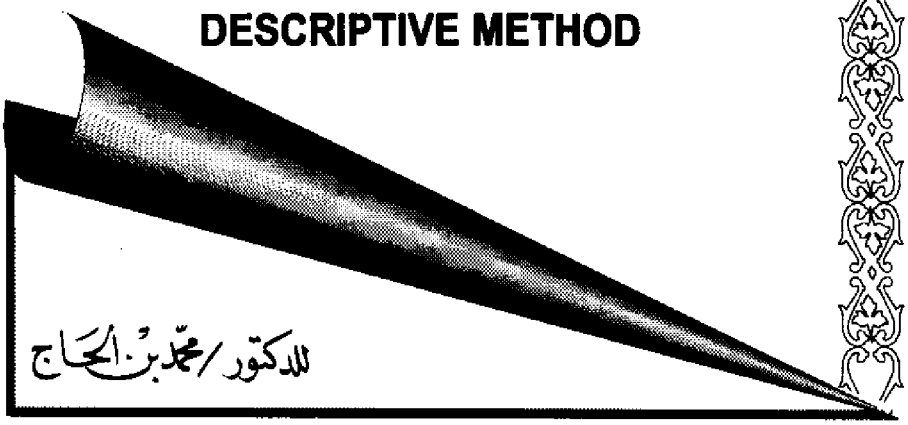

للدكتور/ محمد بن الحاج

الوصف هو أحد مكونات العملية البحثية وإحدى مراحلها الأساسية وأهدافها المهمة، إنه يعني رصد الظواهر وتسجيل الملاحظات عنها، وما بينها من علاقات ودلالات، مادية أو معنوية. ذلك لا يمكن أن يتم إجراء أي نوع من أنواع البحث في غياب الوصف، كما لا يتأتى للإنسان إيجاد بديل عنه في هذه المهمة. وقد بلغت أهمية الوصف درجة عند المدرسة الوضعية أن عدته الوظيفة الجوهرية للعلم[1]. ومع ذلك، فهو ليس الغاية الوحيدة أو النهائية للبحث العلمي، إن مهمة المنهج الوصفي قد تكون غاية أحياناً في حد ذاتها، إذا كانت طبيعة البحث أو الدراسة المستهدفة لا تتجاوز وصف المشكلة أو

(1) انظر: أساليب البحث العلمي ص 79- 80.

الظاهرة وتسجيلها ورصد جزئياتها وما فيها من علاقات متبادلة. ومن هنا نجد الباحث أو الدارس يضع عنواناً فرعياً لبحثه أو لكتابه أو لمحاضرته يقول فيه: دراسة وصفية، وهذا في مقابل أبحاث أو دراسات أخرى، تحمل عنواناً فرعياً آخر يقول مثلاً: دراسة نقدية تحليلية، أو بحث فلسفي نقدي، أو بحث تحليلي نقدي، أو دراسة تاريخية تحليلية... الخ. أما باستثناء ذلك، فإن المنهج الوصفي مرحلة أساسية وخطوة ضرورة، وأداة جوهرية في سائر الأبحاث الأخرى تاريخية أو تجريبية، أو تحليلية نقدية، أو بنيوية، أو توليدية، أو تكاملية... الخ، حيث لا يستغنى عنه، ولا يستعاض عنه بأي بديل. وهذه حقيقة تذكرنا بوحدة المناهج العلمية وتكاملها. فالاستنباط والاستقراء والتمثيل ضمن إطار المنهج الاستدلالي، وكذا المنهج التاريخي، والتجريبي، والوصفي، كلها تتداخل خلال عمليات التفكير، وتتعاون في تشابك معقد، خلال صياغة البحث العلمي وتحليل أفكاره ومناقشته، دون أن يلاحظ الإنسان هذا أو يفكر في حدوثه، وإذا ما تأملنا مجريات المنهج الوصفي، فإننا نلاحظ بوضوح الطابع الاستقرائي في وسائله لجمع البيانات وتقصّيها وتصنيفها وإعدادها للتحليل والتفسير.

ويعتمد الوصف أساساً على المدركات الحسية عن طريق الحواس الخمس التي مكنت الإنسان من ذلك. لكن هذه الحواس لا تستطيع أن تدرك مباشرة إلا جانباً ضئيلاً من هذا الوجود، لذلك ابتكر الإنسان أجهزة مختلفة تكبر أدق الموجودات (الميكروسكوب الالكتروني) وتقرب أبعد الموجودات (التلسكوب الفضائي الإلكتروني) وأجهزة تسجل أعلى درجات الحرارة، وأخرى ترصد أدنى دركات البرودة.. أجهزة تقرأ بواطن الأجساد وأعماق المحيطات وطبقات الأرض، وأخرى تقدر أبعاد الزمن وتكتشف المجرات والسدوم. وسيظل الإنسان يطور أدواته تلك في سبيل الحصول على وصف أدق وأصدق. وهناك خلف هذه الوسائل جميعها العقل، هذا الضابط المراقب، يتتبع العمليات، ويصنفها، ويدرس علاقاتها، ويفسر دلالاتها المختلفة.

ويمكننا بعد هذا أن نحدد أنواعاً متعددة للمنهج الوصفي وأساليب مختلفة لإجرائه، تتباين من مجال إلى مجال، حيث إن طبيعة التخصص العلمي للباحث هي التي تفرض عليه الأسلوب المناسب، والأدوات المعينة، والوسائل الضرورية لذلك. وفي إطار الدراسات الإنسانية بعامة، يمكن تقسيم البحث الوصفي إلى ثلاثة أقسام هي: -

- المنهج أو الدراسة المسحية Survey Study.
- المنهج أو الدراسة الارتباطية Correlation Study.
- المنهج أو الدراسة المقارنة Gasual comparative Study.

وهي مناهج فرعية، يرجع الفضل فيما هي عليه الآن من تطور، وفيما يمكن أن تصل إليه في المستقبل القريب والبعيد، إلى جهود العلماء في ميادين الدراسات التربوية والنفسية والاجتماعية والأنتروبولوجية واللغوية الحديثة.

إن المنهج الوصفي من خلال ما تطور إليه، يمتلك إمكانات كثيرة متنوعة. فهو لم يعد حبيس المكتبة في حدود المادة العلمية التقليدية، بل صار طليقاً بين أدوات المعامل، وإجراء المقابلات والدراسات الحقلية المختلفة، وجمع المادة المسموعة والمرئية، ورسم الجداول وإعداد الرسومات البيانية والأشكال التوضيحية، وترميز البيانات واستخدام الحاسوب، بل وصل الأمر إلى إدخال مادة مثل الإحصاء في مجال الدراسات العليا ودوائر البحث العلمي، بسبب الأهمية القصوى لهذه المادة في تحليل البيانات العلمية DATA واستخراج النتائج الدقيقة منها.

المنهج الوصفي عند علماء المسلمين قديماً

كان هذا المنهج من أبرز المناهج التي سيطرت على التفكير العلمي عند أسلافنا المسلمين، وبخاصة في المراحل التمهيدية الأولى لتقعيد العلوم، بعد محاولات استقراء مادتها العلمية، ثم تصنيفها وتحليلها واستنباط القواعد الكلية منها. وما تلك الجهود التي بذلها علماؤنا القدامى لجمع أنواع النصوص والأخبار: الدينية والتاريخية واللغوية والأدبية، إلا صوراً من المنهج الوصفي

التقريري الذي يرجع الفضل إليه في جمع المادة العلمية الخام التي عكفت أجيال العلماء عليها بالدراسة والتحليل والاستنتاج والنقد والتمحيص.

كذلك فإن المنهج التجريبي الاستقرائي الذي رفع بنيانه علماؤنا المسلمون في مجالات الكيمياء والأحياء والطبيعة والفلك والصيدلة والطب والملاحة والصناعات والحِرف المختلفة، إنما قام على أساليب المنهج الوصفي داخل المعامل «والبيمارستانات»[2] وبين الأواني والمخابير والمشاريط وأدوات القياسات والمكاييل وخلط العقاقير والمواد والمعادن. ولقد تمكن مئات من أساطين العلم أمثال ابن الهيثم وابن سينا وجابر بن حيان والخوارزمي، والطوسي والزهراوي وابن النفيس وابن ماجد وابن البيطار وغيرهم وغيرهم، من أن يتقدموا بالعلم الإنساني خطوات بعيدة، ويغدوا أساتذة لأوربا في عصر النهضة، بفضل المنهجية العلمية التي انتهجوها والتي كان قوامها المنهج الوصفي، بوصفه جزءاً جوهرياً في البنية العضوية للبحث العلمي في كل المجالات. ونقف قليلاً عند تجربة علمائنا القدامى في دراسة اللغة وتقعيد النحو والصرف والعروض، نسوقها مثالاً على استخدامهم المنهج الوصفي إلى جانب المنهج المعياري في تقعيد هذه العلوم.

لقد لاحظ الدارسون أن اتصال أوليات النحو العربي بالواقع اللغوي كان اتصالاً مباشراً، والواقع اللغوي هو الاستعمال، والاستعمال هو من أهم الركائز للمنهج الوصفي، لأن الوصف قرينة الاستعمال. وقد تمثل هذا الاتصال في تلقي النصوص من أفواه الرواة ومشافهة الأعراب والنقل عنهم، وقد أدى هذا إلى استقراء اللغة واستنباط القواعد منها. وقد تولى القيام بهذه المهمة علماء لامعون منهم الخليل والكسائي اللذان يُعدان من أهم مصادر كتاب سيبويه، وكذلك فعل أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة والأصمعي والمفضل الضبي وحماد الراوية وغيرهم[3].

ونظراً لاعتماد الكوفيين أساساً على السماع، وتوسعهم في النقل،

---

(2) البيمارستانات: هي المصحّات والمستشفيات كما كانت تسمى أيام الحضارة الإسلامية العربية.

(3) انظر: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ص 14ـ 16.

وتناولهم القياس تناولاً لا يمس روح النص اللغوي، وتجنبهم التأويلات والتوجيهات المتكلفة، امتازت مدرستهم بطابع هو أقرب إلى المنهج الوصفي الذي لا يخضع للمعيارية prescriptive. [4]

كذلك اتسمت جهود أولئك القدماء عامة بتناولهم الظاهرة اللغوية على أساس الشكل أكثر من كونها على أساس المعنى، ومعلوم أن الشكل أو الظاهرة هو من صميم عناية المنهج الوصفي ومن مبادئه الأساسية[5].

هذا كله يعني أن الدراسات اللغوية عند علمائنا المسلمين كانت قد بدأت وصفية في كثير من أصولها، ثم انتهت فيما بعد القرن الرابع الهجري إلى المعيارية.

لقد حدد أولئك العلماء حدوداً زمانية هي عصور الاستشهاد اللغوي، كما حددوا حدوداً مكانية للقبائل التي نقلوا عنها وقبلوا الرواية منها، وبانتهاء الحد الزماني وتهدم الحد المكاني بفعل الهجرة وانتقال الأعراب ودخول الأعاجم واختلاط البيئات العربية بهم، توقف المنهج الوصفي وساد المنهج المعياري، حفاظاً على تراث الأمة الديني واللغوي والعلمي، وصوْناً للغة نفسها من أن تميع وتفسد، فيصنع ذلك سداً منيعاً يتعاظم مع امتداد الأزمان، فيحجب الأمة عن تراثها، ويفصل مستقبلها عن ماضيها العريق.

كذلك كان الأمر في علم العَروض. فبعد أن قام الخليل بن أحمد بعبقريته العلمية الفذة باستقراء أوزان الشعر الذي انتهى إليه من الجاهلية وصدر الإسلام، وتقعيد أضربه وأعاريضه وقوافيه، من خلال منهج وصفي مسحي تحليلي، لم يُبقِ للذين جاؤوا من بعده شيئاً ذا بال يضاف إلى نظرية الأوزان العربية التقليدية التي تحولت على أيدي العروضيين التقليديين القدماء والمحدثين أيضاً إلى قواعد معيارية صارمة لا يجوز الخروج عنها بحال. أجل، كانت هناك رؤية أخرى عميقة وثريّة لأوزان الشعر لدى ابن سينا والفارابي، وحازم القرطاجني بصورة أخص، وهي رؤية متأثرة بالمفهوم

---

(4) ، (5) المرجع السابق ص 23.

الأرسطي في هذا المجال، لكنها للأسف لم تجد صدى في صدور المبدعين من الشعراء[6] وبقيت مهجورة إلى القرن الحالي حيث توسعت وتنوعت أبحاث الإيقاع الشعري للقصيدة التقليدية والقصيدة ذات المعمار المتنوع الحديث.

والموشحات، تلك الإضافة الرائعة في عالم الشعر والإيقاع، هي أيضاً لاقت عناية من قبل عدد من الدارسين القدامى الذين استطاعوا من خلال منهج وصفي استقرائي أن يستنتجوا قواعدها وبنائها الفني، بيد أن هيمنة المعيارية لم تطل معها، لأنها بطبيعتها جنس شعري مُرَفّه، ما لبث أن اختفى عند شعرائنا القدامى مع انصرام الفردوس المفقود في الأندلس، وعودةِ الشعراء في العصور المتأخرة، وأكثرهم نظامون، إلى الخضوع لأحكام معيارية الأبحر الخليلية التقليدية ببنائها المعياري المعروف.

وفي هذا القرن الميلادي العشرين، بعد أن عاد للشعر العربي شبابه ورونقه، وعاد إلى عطائه المتألق، حاول شعراء محدثون كثيرون تجريب مذاقات موسيقية جديدة، وإيقاعات تعكس روح العصر وغربته وقلقه وما يعانيه الإنسان العربي المعاصر، وكان أن واكب الدارسون هذه التجارب المتعددة في موسيقى الشعر العربي الحديث، من خلال دراسات وصفية شارك فيها أعلام مثل: نازك الملائكة ومحمد النويهي، وشكري عياد، ومحمد المرزوقي، وكمال أبو ديب، وعلي عشري زائد، وغيرهم. وكان هَمُّ هذه الدراسات محاولة تقعيد وتأسيس، ومحاولة إقناع بجدواها ومبررات وجودها.

وقد قامت صراعات وحوارات بين أنصار المنهج الوصفي ممن يباركون التجديد ويدافعون عنه، وأنصار المنهج المعياري الذين يهاجمون ويتندرون على مبدعي هذا الشعر الحديث بأوزانه الحديثة، ولا يعترفون بالشعر إلا إذا كان خليلي الأبحر بصورتها المعروفة. وبعد ما يقرب من نصف قرن من عمر

(6) يمكننا أن نستثني من هذا الحكم موقف الشعراء من وزن وافد هو وزن الدُوبَيت الذي أُخذ عن العروض الفارسي، واستجابت له قرائح عربية كثيرة، حتى شكلت (ديواناً) ضخماً جمعه أحد العلماء المعاصرين، وهو الأستاذ الدكتور مصطفى كامل الشيبي، ونشرته جامعة طرابلس منذ ما يقرب من ربع قرن في طبعة ممتازة وعنوانه (ديوان الدوبيت في الشعر العربي).

هذه التجارب الحديثة، التفت النقد إليها ليقول كلمته فيها. وقد صدرت عدة دراسات في هذا الشأن، منها كتاب (أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث) للدكتور أحمد المعداوي من المغرب، (دار الآفاق 1993م)، و(حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر) للأستاذ كمال خير بك، عن دار الشروق ـ بيروت 1983م.

ونعود الآن إلى المنهج الوصفي ذاته، كما يمارس في دوائر البحث المعاصر القائم على الاستقراء، لنقف على تفصيلاته من خلال طرق الدراسات التي يضمها في مجالات الدراسات الإنسانية خاصة.

يرى علماء المناهج الحديثة أن المنهج الوصفي يهتم بدراسة وقائع الحوادث والأشياء والعادات والظواهر، ولا يتوقف عند الوصف والتوضيح، بل يتجاوزهما إلى التحليل والتفسير والاستنتاج.

ولتنفيذ هذا المنهج يمكن إجراء إحدى الطرق المختلفة الآتية، أو الاستعانة بأكثر من طريقة منها في آن واحد، وهي:

أولاً: طريقة الدراسة المسحية Survey Method

وهي تسعى عادة إلى تكوين صورة متكاملة عن ظاهرة محددة أو مشكلة قائمة أو حادثة معينة، ثم مقارنتها بأخرى معيارية متشابهة، لأجل الفهم أو معرفة الأسباب أو الحل أو التحسين أو التطوير، أو لأجل هذه الأغراض جميعاً أحياناً.

ثانياً: طريقة دراسة التغير أو التطور Developmental Method:

وهي تتبع نماذج التغير أو التطور أو النمو، ومراحل نموها في الظاهرة أو المشكلة المدروسة، وذلك عبر فترة زمنية محددة، وتتضمن هذه الطريقة الدراسات الآتية:

1 ـ دراسة الاتجاهات Trends Study، وهي تُعنى بمصدر الاتجاه أو الاتجاهات التي يتخذه التغير أو التطور في الظاهرة المدروسة.

2 ـ دراسة المتابعة وتسمى بالدراسة الطولية زمنياً Lingitudinal Study،

وذلك لمعرفة العلاقات والأسباب والآثار الحادثة في تطور أو نمو الظاهرة، عبر عدة أشهر أو سنوات.

3 ـ دراسة العينات المقطعية Cross - Sectional study، وذلك بأخذ عينات من جميع القطاعات أو الفئات أو العوامل المتوفرة، لدراستها في آن واحد والتعرف من خلالها على حقيقة الظاهرة المدروسة.

ثالثاً: طريقة الدراسة الارتباطية Correletional method:

وهي تعنى بتحديد العلاقة بين متغيرين (في المشكلة أو الظاهرة المدروسة) أو أكثر من متغيرين قابلين للقياس، وتحديد درجة هذه العلاقة. ويمكن تصنيف الدراسات الارتباطية إلى[7]:

أ ـ دراسة العلاقات بين المتغيرات Related Studies وبصفة خاصة في الدراسات الاستكشافية Exploratory Studies حيث المعلومات عن الظاهرة والمتغيرات محددة، وكذلك في حالة افتقاد الدراسات أو البحوث السابقة عن المشكلة أو الظاهرة المدروسة.

ب ـ دراسة التنبؤ بحدوث الظواهر أو الوقائع Prediction Studies، وهذا يعتمد على مدى ارتفاع درجة الارتباط وتكرار تلك الظواهر والوقائع.

رابعاً: طريقة دراسة الحالة Case Study:

وهي لا تمثل «طريقة بذاتها، بقدر ما تمثل إطاراً إجرائياً يمكن خلاله تنفيذ البحث العلمي باستخدام إجراءات عديدة مناسبة كالمقابلات والاستطلاعات والسجلات الملفات/ والملاحظة المباشرة»[8].

خامساً: طريقة الدراسة المقارنة للأسباب Causal Comparative Study:

وتُعنى بتحديد أسباب الحالة الراهنة للظاهرة موضع الدراسة، وهي تتطلب «إجراءات تختلف اختلافاً واضحاً عن البحوث التي تستخدم التقرير الذاتي كالاستفتاء (الاستبانة) أو المقابلة، أو التي تستخدم الملاحظة ولذلك

---

(7) انظر البحث العلمي في المجال الرياضي 214 ـ 217.

(8) البحث العلمي كنظام ص 69.

يمكن اعتبار البحث السببي المقارن منهجاً منفصلاً عن المنهج الوصفي»[9].

الخطوات التطبيقية الأساسية:

تتمثل أهم الخطوات التي يسلكها الباحث في تطبيق تلك الطرق أو المناهج الوصفية الفرعية فيما يأتي[10]:

1 ـ تحديد المشكلة أو الظاهرة موضع الدراسة.

2 ـ مراجعة الدراسات والمعارف السابقة التي تناولتها.

3 ـ وضع الفروض عن طريق تجزئة المشكلة ووضع عدة أسئلة عنها.

4 ـ تحديد خطة تنفيذ الدراسة أي رسم مخطط أو هيكل مفصل بها.

5 ـ تحديد العينات والمصادر وأدوات جمع البيانات ومقاييسها وأساليب/ إجراءات تحليل البيانات وتفسيرها.

6 ـ تنفيذ جمع البيانات وتحليلها.

7 ـ تفسير البيانات وتطوير الاستنتاجات المناسبة.

8 ـ استخراج النتائج وتحديد التوصيات أو المقترحات الممكنة.

أدوات مقاييس جمع بيانات البحث الوصفي[11]:

هناك مجموعة متنوعة من الأدوات والمقاييس، منها:

1 ـ الاختبارات العادية والمقننة.

2 ـ استطلاعات الآراء أو الاتجاهات.

3 ـ الملاحظة المباشرة وغير المباشرة.

4 ـ المقابلات الشخصية.

---

(9) البحث العلمي في المجال الرياضي ص 227.

(10) انظر البحث العلمي كنظام ص 66 ـ 67 ـ والبحث العلمي في المجال الرياضي ص 149.

(11) انظر المصدر السابق ص والبحث العلمي في مجال الرياضي ص 161ـ 204 الموضوعية والتحليل في البحث الاجتماعي ـ الفصل السابع 186ـ 225.

5 ـ الاستبيانات.

6 ـ الأجهزة العلمية للرصد والقياس والفحص والتحليل والتصوير والقراءة والطباعة والنسخ وتخزين المعلومات.

والجدير بالذكر أن لكل أداة وسيلة من الأدوات/ الوسائل مزايا، كما أن لها عيوباً حددتها كتب البحث العلمي[12]، وعلى الباحث حين يختار إحدى تلك الأدوات أو الوسائل أن يراجع ما لاحظه العلماء عنها من مزايا ومن مآخذ، لكي يكون على بينة منها، فيستثمر المزايا ويتجنب العيوب، ويستفيد من أجل تحقيق دراسات أدق وأشمل، ومن أجل الوصول إلى نتائج أكثر صحة وإفادة.

مراجعة البيانات لإجراء التحليل والمقارنة والاستنتاج:

على الباحث أن يراجع جميع البيانات التي جمعها من مختلف المظان العلمية عن طريق الأدوات والأساليب المذكورة، لكي ينتقل إلى مرحلة تحليل تلك البيانات والمقارنة فيما بينها واستخراج النتائج النهائية منها. وتتم هذه المراجعة عادة بمراعاة الآتي[13]:

أولاً: التكملة أو التتميم Comleteness:

ويقصد بها التأكد من أن جميع الأسئلة والاستفسارات الموجهة قد جمعت لها أجوبتها المطلوبة، وفي حالة افتقاد بعض الأجوبة أو المعلومات الجزئية، فعلى الباحث استدراك ذلك واستكمال النقص أو استبعاد الأسئلة والبيانات الناقصة في حالة فشله في استكمالها.

ثانياً: الدقة Accuracy

وتعني التأكد من دقة المعلومات والبيانات في جزئياتها الدقيقة من حيث

---

(12) أساليب البحث العلمي ص 442ـ 461، والموضوعية والتحليل 195ـ 197 و204 ـ 208 ـ و 212ـ 215 و 217ـ 219 والبحث في المجال الرياضي ص 172ـ 175 و 179ـ 182 و 194ـ 196.

(13) انظر: البحث العلمي في المجال الرياضي/ ص 197، والبحث العلمي كنظام ص 168.70.

صحة نقل النصوص والأرقام وهجاء الكلمات وضبطها وصحة إحالتها إلى مصادرها ومراجعها المنقولة عنها.

ثالثاً: الاتساق Uni formity:

ويعني التأكد من أن إجراءات التعليمات المقرونة بوسائل جمع المادة العلمية ووسائلها وتفسير الأسئلة كانت متماثلة بين القائمين بالمقابلات الشخصية والأشخاص الذين يقومون بتفسير الأسئلة وذلك ضماناً لسلامة النتائج ودقتها.